أرنولد توينبى
وناقدوه

الدكتور جمـال زكريا قاسم *

منذ ان اصدر توينبى الاجزاء الاولى من « دراسته للتـــاريخ » A study of History في عام ١٩٣٤ ، وانتهى من وضع هذه الموسوعة الضخمة عام ١٩٥٤ التى اوضح فيها نظـرياته وتأمـــلاته فى التاريخ ، ظهرت الكثير من الدراسات التى تتناول ما وصل اليه من نتائج ، واختلف المفكرون حول آرائه ، بين متحمسين ومهاجمين ، وان اتفقوا فيما بينهم على انه بحر زاخر بالمعرفة الشاملة والاطلاع الواسع والانتاج الغزير .

ويكفى أن نشير هنا الى انه بلغ من تحمس انصـاره ان شـــبهوا نظرياته بمكتشفات كوبرنيكوس وجاليليو ونيوتن وداروين ، بل لقد شبه البعض منهجه في دراسة التاريخ باكتشاف نظرية الـــكم في الميـــكانيكا quantum Theory واعتبر اليوم الذى تظهر فيه اية كتابات له يوما مشهودا في تاريخ الحضارة الغربية على حد قول بعضهم . وقد اشاد به الكثيرون ليس باعتباره مؤرخا او فيلسوفا ، وانما ايضا باعتباره نبيا عظيما يرشد البشرية الى الطريق المؤدى لمستقبل افضل . كما ركز الكثير من انصاره على اعتباره مؤرخ القرن العشرين ، اذ ليس هناك من ينافسه في مجال معرفته الواسعة وفي منزلته الرفيعة التى احتلها وفي تمكنه المدهش من قدر كبير جدا من المعرفة حول جميع حضارات العالم . وقد اكـد رونالد سترومبرج في مقـدمة كتابه الذى وضعه بعنوان « ارنولد توينبى : مؤرخ لعصر متأزم » (١) . بان الناس سوف يذكرونه على الدوام عـلى اعتبار انه المؤرخ العظيم لعصرنا . وكما ان جيبون وماكولى وبوركهـارت مثلوا عصورهم فان توينبى سيمثل عصرنا للاجيال العديدة القادمة . كما

(*) أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب — جامعة عين شمس .

(١) Strambourg. Ronald N., Arnold Toynbee Historian For an Age in crisis, Southern Illinois University, 1972

اكد باتريك جاردنر بان فلسفة توينبى في دراسته للتاريخ تمثل بدون شك اكبر اسهام قام به القرن العشرون في ميدان التأمل التاريخى (١) ، وقد ذكر البرت حورانى في كتابه « نظرة في التاريخ » A vision on History معلقا على دراسته ، انه كان واضحا منذ البداية ان الكتاب رائع حتى عندما ينظر اليه من ناحية سطحية جدا باعتباره مخزنا للحقائق ، فهو يضم الوانا من الحقائق الغريبة والمشوقة حول العالم الانسانى بل ان اكثر القراء عرضية اذا نظر الى صفحة هنا او هناك سيخرج منها وقد زادت حصيلته من المعرفة وتعمق احساسه بغرابة الحياة البشرية (٢) .

وفي الواقع اننا نجد حتى من المفكرين الذين عارضوا توينبى في آرائه قد سلموا بشموخه وعبقريته .. فالمؤرخ الهولندى بيتر جيل Peter Gyl يسلم بشاعرية توينبى وغزارة معرفته ، وان انكر عليه منهجه التاريخى ، ورغم الهجوم العنيف الذى شنه ولش في كتابه « مقدمة في فلسفة التاريخ » An Introduction to Philosphy of History الا انه لم يسعه الاعتراف بفضل توينبى على التاريخ فهو يقرر ان الخدمة الاساسية التى اداها توينبى كانت للتاريخ نفسه ، وذلك على اعتبار ان عمله سيحطم ضيق افق المؤرخين التقليديين ، وذلك بتوجيهه الانتباه الى موضوعات كاملة للدراسة كان من المعتاد تجاهلها . واكد انه على الرغم من ان المؤرخين المحترفين قد يكونوا على حق في نقده الا ان كثيرا منهم بحاجة الى شيء من رجاحة عقله (٣) .

وقد وضع وولش مقاله في جريدة التيمس علق فيها على ظهور الاجزاء الاخيرة من كتاب دراسة التاريخ باعتبارها نهاية لعمل عظيم .

ومما لا شك فيه ان توينبى تعرض لانتقادات موضوعية كثيرة ، فهناك اعتراضات اثيرت حول منهجه ، بل وصل الامر الى عدم الاعتراف به كمؤرخ . وقد عارض الماركسيون نظرياته مجردين اياها من العلمية ، كذلك

---

(١) Patrick Gordner, Speculative Systems of History Encyclopeadia of Philosphy. Collier - Macmillan 1967 Vol. 7 p. 521.
انظر صدقى عبد الله خطاب – ارنولد توينبى ، مجلة عالم الفكر ، الكويت المجلد الخامس، العدد الأول ١٩٧٤ ، ص ٢٩١ .

(٢) Albert Hourani, A Vision on History, Beirut 1961

(٣) و. هـ. ولش ، مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى محمود ، ص ٢٢٨ ، سجل العرب .

شن اليهود هجوما عنيفا ضد ما ذهب اليه توينبى في حكمه على اليهودية وفي ادانته للعدوان اليهودى على فلسطين . كما اثيرت اعتراضات اكثر حول موقفه من الحضارة الغربية ، ويقال ان الفكرة التى انبثقت منها افكاره حول هذه المسألة تعود الى عام ١٩١١ حين تجول في كريت وشاهد اثار امبراطورية مينوس البحرية المكتشفة حديثا ثم مشاهدته لآثار البندقية منذ العهد الذى كانت فيه تسيطر على البحر المتوسط فاصيب توينبى بنوع من القلق عندما اخذ يفكر في ان امبراطورية اخرى كبيرة في الوقت الحاضر قد تسير على خطى سابقتها نحو الانهيار .

وقد ذكر المفكر الهولندى دى بواد Debois في كتابة «مستقبل الحضارة» الى ان المناقشة التى اثارها كتاب توينبى ، كانت دقيقة وكان النقد متعددا ومع ذلك فان معظم ناقديه قد احنوا رءوسهم تقديرا لالمامه الشامل في مجال التاريخ وعمق نظريته ونبوغه .

وفي الحقيقة ان آراء توينبى ونظرياته فى التاريخ عامة وفي الحضارة الغربية بصفة خاصة قد احدثت ضجة كبيرة ، واصبح من المستحيل ان يتجاهل الباحثون في الاجتماع والحضارة آراء توينبى عند دراستهم لفلسفة التاريخ التى شغلت ولا تزال المؤرخين وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ . وعلى الرغم من اعجاب الكثيرين بآرائه ونظرياته ، فان هناك اعتراضات ليست بالقليلة عليها وان كانت لا تقلل من اهمية الصرح التاريخى الشامخ الذى شيده توينبى .

ومما يستلفت النظر ان توينبى كان مقدرا بل وسعيدا بكل ما كان يكتب عنه حتى وان وصل الامر الى حد تجريحه او النيل من آرائه فكثيرا ما كتب يوجه الشكر والتقدير الى معارضيه وخصومه مؤكدا انه يسعد بالنقد حتى ذلك النقد الذى لا يستهدف غير النيل من آرائه . مؤكدا انه يكفى ان الناقد اعطى شيئا من وقته واهتمامه لما كتب اذ ان تجاهل النقاد لما يكتبه المؤلف ربما يكون اشد واقسي (١) .

---

(١) انظر مقدمة ارنولد توينبى لمجموعة من الدراسات نشرها ادوارد جارجن Gargn عن غاية التاريخ عند توينبى

Edward Gargn (Editor), The intent of Toynbees History, loyla university Press, Chicago, 1961 p. IV

وقد اثبت توينبى مرونته واستعداده لتغيير آرائه ويكفى ان نشير هنا الى انه اختص المجلد الثانى عشر من دراسته ، والذى يقع في اكثر من سبعمائة صفحة لمناقشة نقاده ومراجعة آرائه (١) ، وقد ذكر في مقدمته لذلك الجزء انه من الافيد ان يحاول المرء ان يستفيد من ناقديه اكثر من ان يحاول الصراع معهم (٢) ، وان ما كتبه بالفعل كان يحتاج الى اعادة نظر بسبب تزايد المعرفة والافكار والآراء الجديدة التى تجمعت منذ بدء صدور مؤلفه عام ١٩٣٤ فمنذ ذلك الوقت ملأت فجوات معرفتى واضافت الى الرحلات وزيارة اماكن لم اكن اعرفها الا على الخرائط معلومات كثيرة (٣) ، بالاضافة الى ما جد من استكشافات اثرية حديثة مما لزم معه مراجعة ما كتبت . كما اكد ان الانسان يخطىء طالما هو يواجه الحياة Man errs so Long as he strives (٤) .

وقد يكون من المهم ان نشير ايضا الى ان توينبى تعرض لموجات من النقد العنيف ليس بسبب دراسته للتاريخ وانما بسبب دراساته الاخرى ، فهو يروى لنا في كتابه « معارف Acquiantances » انه عند نشوب الحرب اليونانية التركية ١٩١٩ ــ ١٩٢٢ وارتكب اليونانيون جرائم كثيرة ضد الشعب التركى . ذهب لزيارة مناطق القتال عام ١٩٢١ وكتب لجريدة المانشستر جارديان عن تلك الجرائم كما كتب في العام التالى كتابا عن تلك الحرب اتخذ فيه موقفا محايدا من تركيا واليونان معا ، ومع ذلك لم يرض اليونانيون المقيمون في لندن عن كتابه هذا ، ولما كان هؤلاء يساهمون في تمويل كرسي الدراسات البيزنطية واليونانية الحديثة الذى كان يشغله في جامعة لندن فقد اضطر الى الاستقالة عام ١٩٢٤ ، حيث عمل مديرا للمعهد البريطانى للشئون الدولية واسهم بجهد

---

(١) Ibid.

(٢) صادق خطاب . أرنولد توينبى — مجلة عالم الفكر . المجلد الخامس — العدد الأول ١٩٧٤ ص ٢٩٥

(٣) كما وضع ثبتا ببليوجرافيا عن جميع الانتقادات التى وجهت اليه ويقع هذا الثبت فى نحو عشر صفحات ويتناول بضع مئات من الدراسات وعشرات من الكتب :
Critiques of A. Toynbee pp. 680 - 690
كما صدر فى عام ١٩٥٦ فى بوسطن مجموعة من المقالات الانتقادية والمراجعات لدراسه التاريخ نشرها Montagu بعنوان
Toynbee and History
Critical Essays and Reviews.

(٤) Toynbee, A study of History Vol XII Reconsideration p. 2

كبير في المجلة الكبيرة التى يصدرها ذلك المعهد وهى (١) :
Survey of International Affairs.

في المجلد العاشر من كتابه دراسة التاريخ ، الذى ظهر في صورة اكثر ما تكون ترجمة ذاتية ، يمكن ان يتضح لنا كيف وضع توينبى تصميم دراسته فهو يوضح ان هدفه لم يتعد في الاصل اكثر من كتابة تاريخ مقارن لتدهور الحضارة اليونانية الرومانية والحضارة الغربية ولعله كان في ذلك متاثرا بالجو النفسي الذى عاشه جيله ابان الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ حيث بدا في اعداد مؤلفه ،ومن المؤكد انه قدبدا يتغيربسرعة بعد قيامهبتنفيذ هذا المشروع فقد انتقل سريعا من هذه النظرة التى كانت في الاصل نظرة ثنائية للتاريخ الى رؤية متعددة النظرات وكانت النتيجة انه لم يقتصر في كتابته على تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية فحسب كما فعل جيبون في كتابه اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية ، بل كتب عن تدهور وسقوط كل حضارة من حضارات العالم حيث حدد منها احدى وعشرين حضارة في الماضي والحاضر وتابع بحثه بسؤل ما ظن انه ملامح متكررة في تاريخها مع اضافة بيانات خاصة بظهور هذه الحضارات حتى يمكن الحكم عليها حكما طبيعيا . ويرى وولش ان توينبى قد انتقل بذلك الى خارج مدى اى نوع من انواع التاريخ وانه تحول من مؤرخ الى فيلسوف او على حد تعبيره استبدل برداء جيبون رداء كونت او انه اخذ الخط المعاكس لجيبون كما عبر عن ذلك في دراسته التى نشرها في عام ١٩٢٤ بعنوان Toynbee Versus Gibbon ويتضح ذلك من تامل توينبى في معنى التاريخ تاملا يعيد للاذهان الطريقة التى اتبعها الفلاسفة التامليون من امثال كانت وهردر (٢) . وفي اعتقادنا ان ارنولد توينبى كانمؤمنابوحدة الدراسة التاريخية ، ويبدو انه كان متاثرا في ذلك بما ذكره اللورد اكتون من ان مجرى التاريخ العام يتشكل بفعل قوى ليست قومية ولكنها تنشا عن مسببات اوسع مدى (٣) فانت لا تستطيع في البعد الزماني ان تفهم تاريخ انجلترا اذا انت قصرت بدايته على قدوم الانجلوسكسون الى بريطانيا كما لا تستطيع ان تفهم تاريخ الولايات المتحدة الامريكية اذا انت قصرت بدايته على قدوم الانجليز الى امريكا الشمالية ، وكذلك لا تستطيع فى البعد المكانى ان تفهم تاريخ بلد ما اذا انت فصلت اراضيه عن خريطة العالم

---

(١) Toynbee, A study of History Vol. XII p. 2
(٢) وولش : مدخل لدراسة التاريخ ، ص ٢٢٣ .
(٣) سمرفيل ، مختصر دراسة التاريخ ، ج ١ ، ص ٦ .

وضربت صفحا عن كل ما نشأ خارج حدود هذا البلد بعينه (١) ، فتفسير الثورة الصناعية في انجلترا مثلا يتطلب كما يؤكد توينبى ان نضع في اعتبارنا الاحوال الاقتصادية لا في اوربا الغربية وحدها بل في افريقيا الاستوائية ، وامريكا ، والشرق الاقصي (٢) ولذلك يرى توينبى ان وحدة الدراسة التاريخية القابلة للفهم ليست هى الدولة القومية ولا هى في الجانب الآخر الجنس البشرى في مجموعه ولكن هذه الوحدة هى مجموعة خاصة من البشرية دعاها بالمجتمع كشف خمسا منها لا زالت قائمة فضلا عن وجود عدة مجتمعات متحجرة ومجتمعات اندثرت وانقضت ، ومضي الى دراسة مقارنة لهذه الحضارة التى بلغ عددها احدى وعشرين حضارة (٣) وكل هذه الحضارات لا يزيد عمرها عن ستة الاف او خمسة الاف سنة ، ولذلك اعتبرها توينبى متعاصرة فلسفيا اذا قورنت بمئات الالوف من السنين هى عمر البشرية ، بهذه النظرة المتكاملة نظر توينبى الى التاريخ دون ان يسيطر الزمن عليه وحول هذا الاتجاه وضع بول دراسة بعنوان (٤)
Timeless History

لقد حاول توينبى من خلال دراسته لا ان يصف الماضي بل يستنتج منه عبرة وفلسفة والعديد من القوانين التى تسير الكون وتدفع التيار البشرى وترسم تصورا لما سيكون عليه الغد . وهذا الاتجاه ليس اتجاها جديدا في حد ذاته اذ حاول علماء كثيرون ان يلخصوا الماضي او التاريخ البشرى كى يستخلصوا منه فلسفة او قوانين تزيح الستار قليلا او كثيرا عن سير الغد . ويمكن تقسيم تفسير هؤلاء المفكرين الى نمطين : النمط التصاعدى ومن اتباعه هيجل ، واوجست كونت وماركس ، وهذا الخط يتجه الى الاعتقاد المطلق بالرقى . اما النمط الثانى فهو الخط الدورى ويمثله شبنجلر وتيجارت وسوروكين ويقوم على تفسير التاريخ او فهم التاريخ باعتباره جملة حلقات تمثل كل حلقة منها حضارة من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم انهيارها الحتمى عند انغلاق الحلقة فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ولها نهاية .

---

(١) سمرفيل ، المرجع السابق ، ص ١٩ .
(٢) أرنولد توينبى ، الحضارة فى الميزان ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(٣) سمرفيل ، المرجع السابق ، ص ١٠
(٤) Kominsky, Y. Proffessor Toynbees Philosphy of History Progress Publisher, Moscow 1966 Translated From Russion by Georg Hauna.

وقد انتقد الباحث الحضارى سوروكين ما ذهب اليه توينبى ومن يذهب مذهبه بان الحضارة تولد وتنمو وتموت حيث يرى سوروكين ان الحضارة ما هى الا تكتل لظواهر سياسية واقتصادية وعلمية ودينية واجتماعية وهذه الظواهر للانسانية كلها توجد في مكان ثم تنتقل الى مكان آخر وفي هذا يؤكد سوروكين ان اية حضارة من الحضارات لا تموت برمتها وان باستطاعة المرء ان يجزم بأن نسبة مئوية من اية حضارة من الحضارات الغابرة لا تزال توجد حية حتى اليوم .

حقيقة ان كتابة توينبى توحى لقارئها اتجاهه الى النمط الدورى ـ او العضوى ، وان كان توينبى يدافع عن الاعتراضات التى اثيرت حول منهجه هذا بانه لا يؤمن بالخط الجامد غير المرن كما يقول شبنجلر ، اذ ان شبنجلر كما يذكر توينبى يذهب بذلك مذهب اهل الجبر فهو يرى ان الحضارات نشأت ونمت وتدهورت وانهارت طبقا لتوقيت ثابت لا يتخلف ولكنه لم يأت بتفسير لاى شيء من ذلك لان الامر لا يعدو ان يكون قانونا طبيعيا اكتشفه شبنجلر ويتعين عليك ان تأخذ هذا القانون قضية مسلمة ، ويرى توينبى انه اذا كان موت احدى الحضارات يؤدى الى مولد حضارة اخرى فان ذلك يؤدى الى حدوث دورة مملة لتكرار لا معنى له وانه يجعل من التاريخ قصة لا معنى لها يحكيها رجل ابله ، لذلك كان يتعين ان نبحث في تفسير ذلك وهذا هو الفرق بينى وبين شبنجلر (١) بيد ان طريقة تناول توينبى للموضوع طريقة تجريبية خالصة واذا كان هذا التناول قد ادى الى اكتشاف تناسق معين في تطور بعض الحضارات فينبغى الا يذهب في تفسير هذا التناسق اطلاقا على انه يشكل طريقا غير قابل للتغير او انه قدر على جميع الحضارات ان تسلكه .

ويؤكد وولش ان توينبى كانت نظرته في الاجزاء الاولى من دراسته نظرة عالم الاجتماع الذى يبحث في العوامل التى تؤثر في ظهور وتدهور الحضارات الا انه في الاجزاء الاخيرة من كتابه قد انتقل من الاجتماع الى الميتافيزيقا اذ كان الدور الذى خصصه لنفسه هو دور المتنبىء وهو لا يعتبر وحيدا وانما سبقه فيكو وهردر في ذلك . لقد وجه دى بويس نقدا شديدا الى توينبى مؤكدا ان التاريخ يتغير دوما ومن ثم يستحيل التنبؤ به ، وهو في هذا يوجه النقد الى النمط الذى انتهجه توينبى في دراسته

---

(١) ارنولد توينبى : الحضارة فى الميزان ، رأيى فى التاريخ ، ص ١٨

الذى يجعل من مجرى التاريخ بثرائه الهائل وتنوعه الابدى يختزل الى مجرد نمط قياسي ، كما انكر عليه المؤرخون التقليديون فرضه قوانين للتفسير التاريخى وراوا ان هذه القوانين ليست سوى فرضيات حلا لتوينبى ان يختارها ، فمثلا ذكر المؤرخ هربرت فيشر في مقدمة كتابة تاريخ اوربا انه لم يستطع ان يرى في التاريخ نسقا مطردا وواضح ان فيشر يذهب الى ان كل ما في التاريخ صدفة . وهو الراى الذى ظهر في القرن التاسع عشر وعبر عنه فيشر في النصف الاول من القرن العشرين . وقد ناقش توينبى راى فيشر في المجلد الخامس من كتابه ولم يسلم به مؤكدا ان للتاريخ ككل معنى وانه اكتشف الغايات والمبررات الكامنة وراء الكوارث الكبيرة التى حلت في الماضي ، والمشكلة هنا ان توينبى لا يعد نفسه فيلسوفا او مفلسفا للتاريخ ويكتفى بالقول بانه مؤرخ ، ويختلف المؤرخون معه فى ذلك فمثلا نجد المؤرخ هوسينجا ينكر عليه صفة المؤرخ ويكتفى بالقول بانه شاعر وانه ادخل على التاريخ عنصرا شاعريا انسانيا ولكنه لم يكتب تاريخا حقيقيا (١) اذ انتقده الكثيرون في انه وجه العناية الى البحث في القوى او العوامل او القوانين التى تسير التاريخ أو ما يسمى احيانا بما وراء التاريخ (٢) وعن الغيبيات التاريخية ظهرت الكثير من الدراسات التى تناولت ما ذهب اليه توينبى في هذه الضبابية الغيبية ومن ذلك دراسة وودوارد المعنونة ب « توينبى وما وراء التاريخ » Toynbee and Metahistory التى صدرت عام ١٩٥٨ كما تساءل هربرت تنجستين عن منهج توينبى هل هو منهج علمى أو غيبى ؟ وذلك في مقالة بعنوان Science or Mythcism كماوضع كولبورن دراسة عن الحقيقة والخيال في دراسة التاريخ Fact and Fiction in Toynbee's study of History وقد انكر وولش على توينبى ان يكون مؤرخا في كتابه دراسة التاريخ ، بل انه تساءل عما اذا كان هناك من سيقرا هذه الدراسة بعد خمسين سنة مثلا اذ انها نتجت عن آراء شخصية واعتبارات ليست موضوعية تماما كما كتبت الاجزاء الاخيرة بطريقة رديئة حتى انني اشك في اقدام الكثيرين على قراءتها (٣) .

---

(١) ويؤيد هذه الفكرة Fiess في الدراسة التى نشرها فى عام ١٩٥٥ بعنوان
Toynbees as a Poet

(٢) حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون – عالم الفكر ج ٥ العدد الأول ١٩٧٤ ص ١٠١

(٣) وولش : مدخل لدراسة التاريخ ، ص ٢٢٦ .

ويؤكد وولش انه على الرغم من اصرار توينبى على تقديم نفسه كمؤرخ او كدارس للتاريخ ينظر الى ما حدث ، ويكتب وقائع واضحة الا ان ذلك ليس صائبا تماما فان توينبى لم يكن مؤرخا في بداية مؤلفه عندما حاول اكتشاف القوانين التى تحكم التغير التاريخى ، فلم يكن يهتم حينئذ بالوقائع الجزئية بل بالنماذج المتكررة وكشف القوانين التاريخية لا يعتبر مساويا لكتابة التاريخ بالمعنى المعتاد بل هو يفترض وجود ذلك التاريخ افتراضا سابقا . قد يكون حقيقة ان توينبى ساهم في كتابة تاريخ مجالات مختلفة كما فعل مثلا في كتابته عن تاريخ اسبرطة الا ان في معالجة توينبى لحضارات امريكا الوسطى والجنوبية نجده يعتمد اعتمادا كبيرا على النتائج التى اثبتها الدارسون الاوائل لتلك الحضارات فالمؤرخون يقتصرون على اكتشاف وفهم ما حدث في الماضي وحتى عندما يهدفون الى البحث عن معنى شيء فانهم يقصدون مجموعة الوقائع المحددة في المكان والزمان الذى ولى وانقضي اما توينبى فانه على العكس من ذلك لا يكتفى بجعل التاريخ كله ميدانا لبحثه بل يجعل هذا البحث يمتد من الماضي الى الحاضر فالمستقبل وليس من شك كما يقرر وولش ان امتداد مجال البحث هذا هو الذى لفت الانظار الى كتابات توينبى مما ادى الى شعور المؤرخين الحقيقيين بالاسي لان قراءهم يتعجبون لخلو مؤلفاتهم من هذه الخصائص المثيرة والمشكلة ليست فقط في ان توينبى ليس بمؤرخ فان هذه الحقيقة لصالحه الى ابعد حد لان اكثر الشتائم التى انهالت على دراسته قد جاءت من نقاد ذوى عقول تاريخية .

وقد يكون حقيقة ان توينبى تمتع بمعرفة واسعة او موسوعية بالوقائع التاريخية . وانه كان تواقا للعثور على ادلة تاريخية تؤيد نظرياته ولكن ما يعيب عليه كثير من النقاد انه تمسك بهذه النظريات عن اقتناع عاطفى ، وان مؤلفه منذ البداية كان ذا طابع شخصي وحتى في الجزء الاول على الرغم من محاولته ان ينحو منحى تجريبيا فانه ايد نظرياته بالرجوع الى افكار خرافية وشعرية كما انه يدعم حججه بتشابيه بليغة مؤثرة بطريقةتجعل هذه التشابيه والمجازات تبدو وكأنها حقائق تاريخية (١) مما جعل كثيرا من الباحثين يشعرون بعدم الرضا عنها ، وقد اعترف توينبى ان الكتاب المقدس اثر تاثيرا كبيرا في كتاباته كما انه تاثر بالافكار الاسطورية التى وضعها اسخيليوس في اجا ممنون وميلتون في الفردوس المفقود بل

---

(١) هنرى فرانكفورت ، فجر الحضارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢٤ .

وبعض اعمال شكسبير وجيته في فاوست ومنها استوحى فكرة التحدى والاستجابة في مسيرة التاريخ ونشوة الحضارات مما جعل كثيرا من النقاد يرون ان كثيرا من افكاره الرئيسية مثل التحدى والاستجابة والانسحاب والعودة والركود والاندفاع قد خيبت الآمال لعدم دقتها بل يرى البعض انه من الخطأ ان تنتقد كتابات توينبى من حيث قواعد المنهج العلمى اذ ان منهج توينبى مثل معلميه شبنجلر وبرجسون ينصب أساسا على رفض المنهج العلمى وعلى رفض المعرفة المتعلقة للتاريخ . (١) ذلك ان اتجاه توينبى الى وصف المجتمعات البدائية بالجمود ينم عن تحيز لنظرية التطور مما يتضارب مع واجب المؤرخ الاول بأن ينصف كل حضارة بناء على ما يلحظه فيها من سمات خاصة (٢) ويؤكد هنرى فرانكفورت في كتابه The Birth of Civilisation in the Near East بأن نظرية التحدى والاستجابة ليست ناشئه عن صلب التاريخ ولكنها نظرية مطبقة على التاريخ من الخارج وانطباقها في الغالب امر مشكوك فيه كما انها موضوعة في شكل اطار خادع ذلك ان الحقائق الملحوظة في نظره هى استجابة الى تحدى نظرى لتعليل تلك الحقائق ، كما ان توينبى يضع في المجلد الثانى من دراسته عناوين مثل الحوافز التى تثيرها البلدان القاسية والحوافز التى تثيرها الاراضي الجديدة والحوافز التى تثيرها المصائب والحوافز التى يثيرها الضغط والعقاب ... الخ .

ان توينبى يعتقد ان الاحوال السيئة التى عددها كانت بمثابة دوافع او حوافز للارتقاء ، قد يكون الامر كذلك لكنه لا يعلل على اية حال الحقيقة التى تحتاج قبل غيرها الى تعليل وهى ان هذه الاحوال كانت دوافع او حوافز في بعض الحالات لكنها لم تكن كذلك في احوال اخرى فالقاعدة برمتها لا تؤدى الى الاقتناع الكامل لانه يتبقى في كل حالة ان يبتدع تحديا يناسب الحقيقة التاريخية التى يسميها استجابة ، ولذلك كان على توينبى ان يستخرج من كل حالة تاريخية معينة فكرة التحدى الخاصة التى يمكن

---

(١) وقد انتقده فى ذلك جال مادويل Jacques Maduale

فى دراسته التى وضعها عن التفسير البيولوجى والخرافى للتاريخ

Une intrepretation biologique et Mystique de l'Histoire cf Diogene, sommaire l'apport d'Arnold Toynbee No 13 Janvier 1956 pp. 40 - 60

(٢) هنرى فرانكفورت ، فجر الحضارة ، ص ٢٤ .

اعتبارها استجابة لها انه يطبق القاعدة من الخارج وهى لذلك محكوم عليها بالا تكون ذات صلة بالموضوع (١) .

وفي ذلك المجال ايضا يتهم روبرت تريفور تويني انه ينتقى الحقائق التاريخية لتصوير نظرياته (٢) ، ويتفق معه في ذلك المؤرخ الهولندى بيتر جيل فعاب عليه انه في دراسته للحضارات ابعد ما ظن انه ملامح متكررة في تاريخها مؤكدا ان نظامه لا فائدة منه فان المقارنات يجب الا يعتمد عليها لان لكل واقعة ظروفها التى تحول دون تكرارها بالصورة التى تمت بها كما عاب عليه البعض انه يؤكد حياده التام ازاء الحضارات ، الا انه في ايراده للامثلة التاريخية التى يؤيد بها وجهة نظره ينتقى منها ما يتناسب مع حجته أو يعرض هذه الحجج بالطريقة التى تروق له وتتلاءم مع النتيجة التى يهدف اليها ، وفيما يبدو ان هذا الانتقاد اكثر مما اثار توينبى وكان اكثر مناقشة له في الجزء الثانى عشر من دراسته Reconsideration (٣) ، ومن الطريف ان توينبى دافع عن نفسه فيما يتعلق بلجوئه الى الاساطير ويرجع ذلك على حد قوله الى اخفاقه في تفسير نشوء الحضارات فاذا كانت هناك حضارات انسانية نشأت في الوادى الاسفل للنيل والوادى الاسفل لدجله والفرات وهما الواديان اللذان كانا مهدا للحضارتين المصرية والسومرية فان ذلك يمكن تفسيره بسبب التشابه الواضح بين الظروف الطبيعية السائدة في كل منهما ولكن اذا صح ان هذه الظروف الطبيعية التى هى السبب الحقيقى في ظهور تلك الحضارات فلماذا لم تظهر حضارات مماثلة في كل من وادى الاردن وريوجراند وكلاهما في ظروف طبيعية مماثلة لظروف هذين الواديين ثم لماذا لم تنشأ حضارة في جبال كينيا مماثلة للحضارة التى نشأت في هضبة الانديز الاستوائية ؟ . ان الاخفاق في الاجابة على هذن التفسيرين قد دفعنى الى أن اتجه الى الاساطير وقد اقدمت على هذا الاتجاه وبخالجنى الشعور بالخجل وتعريض نفسي للنقد كما لو كنت اقدم على خطوة متيرة ولعلى كنت اشعر بقدر من الثقة في النفس لو اننى لم اجهل كما كان شانى فى ذلك الوقت ما اهتدى اليه علم النفس من الكشوف الجديدة ولو اننى اطلعت في ذلك الوقت على مؤلفات س.ج.جونج لكانت قد ارشدتنى الى

---

(١) هنرى فرانكفورت ، غجر الحضارة فى الشرق الأدنى ، ص ٣٢ .

(٢) Kosminsky, op. cit. p. 39 - 42

(٣) Arnnold Toynbee, A study of History Vol. XII Reconsideration p. 3.

الدليل الذى يهدينى السبيل على انى قد عثرت على هذا الدليل بالفعل في رواية فاوست لجوته وهى الرواية التى الممت بها لحسن الحظ ابان الدراسة الماما لا يقل عن الماهى برواية اجا ممنون لاسخيليوس (١) .

على انه يجدر ان نشير هنا الى ان السبب الرئيسي في الضجة الكبيرة والجدل الشديد الذى اثير حول آراء توينبى هو اتجاه المفكرين الى مناقشة المصير الذى يمكن ان تصل اليه الحضارة الغربية ، وكانت هذه المشكلة قد اثارت انتباه الكثيرين قبيل الحرب العالمية الاولى وبعدها فيما يتعلق بمستقبل الحضارة الغربية ، ومن المؤكد ان توينبى نفسه قد عاش ذلك الجو النفسي الذى دفعه بالحاح الى وضع دراسته والتى نهج فيها المنهج الدورى وخرج بنتيجة قياسا على منهجه التجريبى في دراسته للحضارات العالمية السابقة ان الحضارة الغربية مآلها الزوال ، وبالتالى احدثت آراؤه هذه صدى بعيدا خاصة وان دراسته للتاريخ حفلت بالادلة الكثيرة التى اكدت ان كل حضارة مهما بلغت من القوة والشمول والاستمرارية فان مآلها الى الزوال . ويبدو ان هذه الآراء التى وصل اليها ازعجت الكثيرين من المفكرين حتى اتهمه البعض على موقفه من الحضارة الغربية من تشاؤم بمستقبلها وانه توصل الى آراء تناهض المثل العليا ، كما هاجمه بيرجيل حين اكد انه يميل الى توكيد كآبة لا ضرورة لها بالنسبة لمستقبل الحضارة الغربية بل اتهمه البعض بخيانته لقضية الحضارة الغربية وانه يتمنى زوالها .

وقد اجاب توينبى على هذه الانتقادات بالتساؤل كيف يتمنى زوال حضارة ينتمى اليها كما رد على جيل بان صفة الكآبة و المرح في نظرية ما لا شأن لها في جعل تلك النظرية صحيحة او زائفة ، ولكنه كمؤرخ لا يمكنه ان يتغافل عن حقيقة من الاهمية بمكان لمستقبل البشرية بأسرها ومؤداها انه قد تحققت للغرب في فترة ما السيادة على الاغلبية من سكان العالم الامر الذى بث في روح الغربيين شعورا بالاستعلاء فكان ان تردوا في عبادة ذاتهم الفانية وانبنى على ذلك ان اقعمت قلوب بقية البشر كراهية الغربيين فاصبح العالم يضطرب بانباء الثورات والانتفاضات على السيطرة الغربية بكافة انواعها ، ومن ثم يرى توينبى ان الغرب في محنة وان خلاصه يكمن فى ايمان الغربيين بمبدأ الاخاء والمساواة بينهم وبين بقية البشر وان يقدموا

---

(١) ارنولد توينبى ، الحضارة فى الميزان ، رأي فى التاريخ ، ص ١٩

لاخوانهم في الانسانية يد المساعدة على الصعيدين الثقافي والاقتصادى ، بل ذهب توينبى في رده على منتقديه بان المستقبل مفتوح وان التاريخ الماضي لا يتنبأ بصفة قاطعة بما سيكون عليه الغد ، وعلى الرغم من ان كل المجتمعات البشرية نتيجة لما ارتكبته من حماقات واخطاء قد اندثرت من عصور متفاوته الطول الا اننى لا اعتقد ان مجتمعا واحدا من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل او انه قدر لا بد ان يواجهه ، اننى اقف موقفا من الحضارة الغربية غير انى لا اقف منها موقفا متشائما . كما اكد توينبى انه لا يذهب مذهب الجبرية في تفسير لغز الحياة البشرية بل يعتقد انه طالما وجدت الحياة وجد الامل وان الانسان بعون الله هو المهيمن على مصيره ولو من بعض الوجوه الى حد ما (١) وقد تساءل في كتابه « الحضارة فى الميزان » هل يخفى لنا المستقبل هذا النمط من التدهور والانهيار كأنه قضاء محتوم لا امل لحضارتنا في الافلات منه ؟ واجاب على ذلك بالنفى . واكد ان فشل التجارب السابقة لا تقضي بالفشل على التجارب اللاحقة — بل انه يتيح لها فعلا الفرصة المواتية لتحقيق النجاح عن طريق الحكمة التى يمكن اكتسابها بمعاناة الالام ، وعلى الرغم من اقراره بانه ليس هناك ما يمنع الحضارة الغربية من ان يجرى عليها حكم السوابق التاريخية اذا هى اختارت لنفسها ان تنتحر انتحارا اجتماعيا الا انه لم يكتب علينا ان نجعل التاريخ يعيد نفسه معنا ففى وسعنا ان نحول بجهودنا مجرى التاريخ الى اتجاه جديد لم يسبق له مثيل وقد اوتينا هذه الحرية في الاختيار بوصفنا كائنات بشرية وليس في وسعنا ان نلقى بتبعاتنا على الله او الطبيعة بل يمكن ان ننهض بها نحن انفسنا لان ذلك لزاما علينا (٢) .

ويبدو ان هذا الرد لم يقنع الكثيرين من منتقديه بل ذهب البعض الى تشبيه موقفه بموقف الفقيه او المعلم الدينى الذى يقيم الدليل على الجبر ثم يؤمن لاسباب نفسية بالاختيار اذ ان دراسة توينبى ما هى في الواقع الا سلسلة من الادلة على ان كل الحضارات التى سبقت لم تستطع ان تضمن لنفسها البقاء والخلود ، هذا وان كنا نجد البعض ممن دافع عن توينبى ونفى عنه الحتمية كما فعل اوسكار هالكى في دراسته المعنونة (٣)

The validity of Toynbee's Conception on the Prospects of Western civilisation.

---

(١) ارنولد توينبى ، الحضارة فى الميزان ، هل يعيد التاريخ نفسه ، ص ٣٨

(٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(٣) CF. Gargn E., The Intent of Toynbee's History p. 202.

وبينما وقف المفكرون الغربيون من توينبى هذا الموقف تعرض توينبى فى الوقت نفسه الى انتقادات شديدة وجهت الى ارائه من جانب المفكرين الماركسيين الذين اعتقدوا ان توينبى محارب للشيوعية منتهجا الموقف الاصلاحى لمواجهة الزحف الشيوعى الذى بدات تتعرض له بعض الامم بل واوربا نفسها في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وبالاضافة الى ذلك نجد ان كثيرا من الانتقادات وجهت ايضا من قبل المفكرين الماركسيين حول منهجه على اعتبار ان هذا المنهج يخالف تماما المنهج العلمى فنجد ان كوسمنسكى وهو استاذ ماركسي يصدر كتابا عن فلسفة ارنولد توينبى التاريخية ، وعلى الرغم من انه يستهل كتابه بالضجة الكبيرة التى اثيرت حول كتاباته (١) ، فان توينبى في اعتقاده بجانب الروح العلمية في حين يفسر التاريخ تفسيرا اقتصاديا ، كما ان نظرياته تخالف المنهج المادى في انكاره دور الجماهير في حركة التاريخ ، وعاب عليه فهمه للتاريخ باعتبار ان التاريخ صراع بين الطبقات ، بل انه ايدى استمزازه من ثورات الفلاحين التى نشبت في المانيا في القرن السادس عشر ، كما لم يبد تقديرا لكومبون باريس الذى نشا بعد الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ .

ولعل اهم ما ياخذه الماركسيون على توينبى انه معاكس للمادية الجدلية التى تكشف العلاقات بين الطبقات ، وانه يحاول بقدر ما استطاع ان يخفى الصراع الطبقى وراء ضباب المثالية والخرافية واللاهوتية ، وتاكيده ان حل المشكلات الاجتماعية تكمن في الروح وفي المحبة المسيحية (٢) christian Love كما اخذ عليه الماركسيون محاربته للقومية والشيوعية وكراهيته للتقدم التكنولوجى باعتباره عاملا من عوامل السلبية (٣) وهناك من الدراسات التى انتقدت منهج توينبى في انه بعيد تماما عن المنهج التاريخى من ذلك دراسة شارلس ترنكاوس بعنوان Toynbee against History وكذلك دراسة اوسكار هاكلى التى وضع لها عنوانا طريفا هو Toynbee's Pied-Piper Made History

كما يعترض الماركسيون على ما ذهب اليه توينبى من اعتبار الافراد العظام وليست الشعوب هى القوى الرئيسية المحركة لتطور المجتمع .. اذ يؤكد توينبى ان الصانع الحقيقى للتاريخ هو الشخصية الفردية المبدعة

---

(١) Kosminsky, Professor Toynbee's Philosphy of History p. 60. Moscow, 1966

(٢) Ibid, p. 57

(٣) Ibid, p. 60

التى اسماها بالنخبة المبدعة Creative Elite ولعله اقتبس ذلك مما ذكره برجسون بان الرجال العظام لهم قدرة الخلق والابداع ومما يدلل على ذلك ان توينبى اورد تراجما لعديد من الشخصيات ابتداء من موسي وعيسي ومحمد وبوذا وميكافيللى وبطرس ونابليون باعتبارهم الشخصيات المبدعة الخلاقة او كما عبر عنهم بال Super Humans او ال Creative Personalties على اننا يجب ان نلاحظ هنا انه على الرغم من اشادة توينبى بدور الرجال العظام في دفع الحضارة الانسانية الا انهم يتحملون في رايه مسئولية الاخطاء التى يتردى فيها المجتمع (١) على ان اكثر ما يأخذه الماركسيون على توينبى عدم توجيهه اهمية كبيرة للحركة التاريخية التى مهدت الطريق لظهور حضارة ما كما انه يذهب في نظريته « التحدى والاستجابة » التى هى خطأ منهجى كبير ــ تردى فيه توينبى ــ الى تجاهل القوى الداخلية في المجتمع (٢) اذ تقوم النظرية في اعتقاده على ان تولد الطاقة في المجتمع نتيجة مواجهته بظروف شاذة تدفعه الى الابتكار ، اذ ان تصويره للتحدى والاستجابة والاستجابة والعودة الى ما اسماها باليان واليانج وهما مرادفان صينيان ــ معتمدة على خرافات واساطير من برسيفون وادنيس وديونيسيوس كما تعتمد على ما جاء في العهدين القديم والجديد . كما عاب عليه الماركسيون انه لا يستخدم تعبير البروليتاريا استخداما سليما وانما يعتبر البروليتاريا تلك الفئات التى تشعر بعدم انتمائها الى المجتمع الذى ترتبط به ارتباطا عضويا (٣) ، كما ان تفسيره لقيام الحركة الشيوعية يتمشي مع طريقة تفكيره اذ يعتقد انها نشأت حين اخفق الغرب في ان يتمشى مع التعاليم المسيحية في حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية وان الشيوعية في اعتقاده ، بمثابة دين انشاه قديسون ملحدون من الغرب من امثال ماركس وانجلز (٤) .

ويمكن ان نذهب استنتاجا مما اوردناه ان المفكرين الماركسيين يعتبرون توينبى احد المفكرين البورجوازيين الذين وضعوا نظما او فلسفات لمحاربة الاشتراكية العلمية وتاكيده على الدين باعتباره المحتوى الاساسي للتاريخ البشرى ويتلوه العامل المادى في الاهمية على عكس الماركسية التى تنظر الى الاديان والمؤسسات الدينية على انها وسائل تستخدمها الطبقة

---

(١) Kosminsky, op. cit. p. 15
(٢) Ibid, p. 13
(٣) Ibid, p. 18
(٤) Ibid, p. 19.

البورجوازية للدفاع عن الاستغلال وتخدير الطبقات الكادحة وصرفها عن المطالبة بحقوقها .

وقد يكون من الضرورى ان نشير هنا الى ان كثيرا من الناقدين قد انكروا على توينبى اتخاذه الحضارة اليونانية ـ الرومانية (١) المعيار او المستوى الذى قارن على اساسه حضارات العالم كلها ووضع بعد ذلك من تجربته هذه قانونا تسير عليه الحضارة أو رسم به مسارات الحضارات الاخرى . وقد ذكر بارنس H.E. Barnes بصدد ذلك ان توينبى استخدم الحضارة الهيلينية كنموذج ليكون نظريته العامة عن جميع الحضارات من حيث نموها وتدهورها كما انه يحشر حقائقه باستمرار في قالب لا يتلاءم معها دائما ، وقد اكد كثيرون من النقاد ان توينبى انطلق في دراسته للحضارات من ثقافته الكلاسيكية ومن تجربة الحضارة اليونانية الرومانية وهى تجربة محدودة زمنيا وجغرافيا ، ومن ثم لا تصلح لان تكون المقياس الذى نقيس به الحضارات كلها . ومما ينبغى ان نشير اليه ان توينبى تلقى تعليما في الموضوعات الكلاسيكية التاريخية اليونانية والرومانية ، بالاضافة الى اللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما وقد اتقن هاتين اللغتين اتقانا تاما حتى انه نظم بهما قصائد اوردها بالقسم الثالث من كتابه ، كما ان العبارات اليونانية واللاتينية تتردد كثيرا في كتابه دراسة التاريخ دون ترجمتها حتى لقد اخذ عليه بعض النقاد هذا الامر .

حقيقة ان توينبى يعترف بأثر الثقافة الكلاسيكية على تفكيره وان دراسته الكلاسيكية والتاريخ اليونانى بصفة خاصة كانت منبع الهامه الا انه يؤكد ان هذه الثقافة تنحو به موقفا عقليا خارج نطاق الزمان والمكان ومن ثم كرس حياته العلمية للوصول الى رؤية شاملة للشئون الانسانية ، وانه استخدم التاريخ الهلينى كانموذج لتحليل تاريخ الحضارات الاخرى .

كما ان تأثير الثقافة الكلاسيكية على ما ذهب اليه مفكرو القرن التاسع عشر في التخصص الضيق لا يعنى له شيئا فهو يقول في كتابه « الحضارة في الميزان » ان هذه الدراسات القديمة ذات فائدة كبيرة لكل من اراد ان يكون مؤرخا وبخاصة لمن ولد فيهذا العصر ، ذلك ان تاريخ العالم اليونانى الرومانى له مزاياه الواضحة باعتباره حقلا من حقول التدريب وفي مقدمة هذه المزايا ان التاريخ اليونانى الرومانى يمكننا ان نراه وحده لانه

---

(١) راجع المجلد الخامس من دراسة التاريخ لأرنولد توينبى .

مضي وانقضي وذلك على نقيض تاريخ عالمنا الغربى الذى لا يزال رواية لم تتم فصولها ولا ندرى ماذا ستنتهى اليه حوادثها (١) .

والحقيقة ان توينبى لم يقتصر في دراسته على الحضارة اليونانية الرومانية وانما تناول كماهو معروف احدى وعشرين حضارة من الحضارات الانسانية ـ كما اختلف الكثيرون مع توينبى بسبب تبنيه المثالية الدينية في تفسير التاريخ ، فقد ذكر الباحث الاجتماعى الامريكى هـ.ا. بارنس ان تعاليم توينبى ليست نتيجة بحث علمى خالص وانما تدخل فيها تعاليمه الدينية اذ ان النظرية التى يستند عليها توينبى هى ان هلاك المجتمعات كان بسبب عدم وجود الايمان الصحيح . ويعيب عليه البعض انه على الرغم من دعوته الدينية الا انه يعتبر المسيحية او الكاثوليكية على وجه التحديد هى العقيدة الصحيحة . كما يأخذ عليه الكثيرون ان كتابه (دراسة التاريخ) ملىء بالتشبيهات من العهدين القديم والجديد اللذين يعدان جزءا رئيسيا من فلسفة توينبى وان التعاليم الدينية واللاهوتية لها وزن خاص من المجلد السابع الى العاشر وهى الاجزاء التى اصدرها عام ١٩٥٤ ، ولا يخفى توينبى من ناحيته تأثره بالدين فهو يقول ان عقائده هى التى تتولى توجيهه وارشاده كما اصدر عام ١٩٥٦ كتابا بعنوان An Historian approach to Religion « سبيل مؤرخ الى الدين » ، كما وضع في العام التالى كتابا آخر بعنوان المسيحية بين اديان العالم ، كما كان يردد في اكثر من موضع من كتبه ان طريق الحضارة الغربية ستؤدى بها الى التهلكة ما لم ترجع الى الله تائبة ونادمة ، بل ان توينبى ذهب في الرأى الى انه يجب عند دراسة التاريخ بوصفه بوصفه وحدة شاملة ان يترك التاريخ الاقتصادى والسياسي الى المرتبة الثانية وان يجعل المقام الاول للتاريخ الدينى لان الدين هو الامر الخطير الذى يهم الجنس البشرى (٢) او ليس العالم جزءا من ملكوت الله (٣) .

---

(١) ارنولد توينبى ، الحضارة فى الميزان ، رأي فى التاريخ ، ص ١٢

(٢) ارنولد توينبى ، الحضارة فى الميزان ص ٩٨ . انظر توحيد العالم وتغير النظرة التاريخية وكذلك معنى التاريخ بالنسبة للنفس ، ص ٢٠٦

(٣) لعل من أهم الدراسات التى وضعت عن تأثير الدين على أعمال ارنولد توينبى الدراسة التى وضعها جامس هاستنجر بعنوان Religion in Toynbee's History ونشرت فى المجلة الدينية بشيكاجو عام ١٩٤٨ ودراسة جوهان ستراثى بعنوان Critique of Arnold Toynbee's view on religion ودراسة الأب والكر Walker بعنوان Toynbee and Religion المنشورة عام ١٩٥٥ وكذلك مقالة فيليب رالف بعنوان دعوة توينبى إلى الإيمان Toynbee's Call to faith.

وقد انتقده بعض النقاد لانه يتكلم احيانا كواعظ مسيحى حتى ان وولش مثلا يذكرانه في الاجزاء الاخيرة من كتابه كان الدور الذى خصصه لنفسه هو دور الداعية ، وبصدد ذلك يؤكد بيتر جيل ان عمل توينبى يعطى انطباعا كما لو كان صاحب رسالة واوضح في كتابه «مناقشة مع المؤرخين» الذى خصص منه ما يقرب من مائه صفحة لمناقشة نظام توينبى ، ان توينبى تميز بكونه شاعرا اديبا (١) كما ان ارنولد توينبى اذا وصف نفسه بالمتنبىء بدلا من المؤرخ فانه لا يتنازع معه (٢) ، والحقيقة ان دراسة توينبى كانت دراسة انسانية شاملة فان معظم تاريخه يصدر من احساس انسانى عام قائم على الايمان بوحدة الانسانية ، والايمان بتجربتها الحضارية ولم يغضب توينبى من الموقف الذى وقفه نقاده فيقول ان هدفه من كتابة دراسة التاريخ كان تعريف الامم بعضها ببعض واطلاع كل منها على التجربة السياسية والحضارية للاخرى وهذه المعرفة من شأنها ان تقلل من كراهية الامم بعضها لبعض وتفتح ابواب التفاهم الانسانى . والذى لا شك فيه ان توينبى نهج في كتابة التاريخ نهجا انسانيا لم يوفق اليه مؤرخ آخر ففى اعتقاده ان الحضارة لا تتجلى في مبتكرات اهل العبقرية بقدر ما تتجلى في مستوى معيشة الجانب الاعظم من الشعب ومن هنا فان توينبى لا يتحمس حماسا شديدا لعصر النهضة الاوربية لمجرد انه انجب رجالا عظاما من امثال ميكيافيللى او ميكائيل انجلو او دافنشي ــ لان الفلاح الايطالى كان يعيش اتعس ايامه خلال ذلك العصر المضطرب . ونحن حين نعجب من ناحية الجمال الفنى باعمال البناء والعمارة التى تتجلى في الهرم الاكبر او نعجب بجمال الاثاث والجواهر في مقبرة توت عنخ امون ينشب في نفوسنا صراع بين الشعور بالفخر والسرور بهذه الانتصارات التى احرزها الفن الانسانى وبين الشعور بالاستنكار الادبى للثمن البشرى الذى اقتضته هذه الانتصارات وهو الاعمال الشاقة التى فرضت ظلما على الكثيرين لانتاج ازهار تلك الحضارة اليانعة كيما تكون وقفا على متاع طائفة صغيرة تجنى ثمار مالم تزرع (٣) .

كما لا يتردد في وصف الغرب بانه المعتدى الاول في العصور الحديثة

---

(١) Peter Geyl, Debates with Historians pp. 119, 169 - 70
CF. Toynbee as Prophet.

(٢) نفسه ، ص ١٤٣

(٣) ارنولد توينبى ، الحضارة فى الميزان ، ص ٣٤ .

وانه اذا كان قد بدا يقاسي على يد الامم الاخرى فلطالما قاست امم العالم منه قرونا عديدة . كما يعتقد ان ابحاث الفضاء وتنافس الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى عليها عمل صبيانى وغير اخلاقى في عصر معظم الناس فيه فقراء ، ومن الطريف انه ذكر بصدد ذلك اننى لو كنت حاكما دكتاتوريا لهذا العالم لاوقفت جميع برامج الفضاء الحالية فورا ، اننى لن احذف هذه البرامج من جدول اعمال ولكننى سأعطيها مكانا متاخرا جدا في قائمة الاولويات عندى .

ومما لا شك فيه ان توينبى شغل نفسه بكل ما يهم الانسان وكتب بوحى من مسئوليته كمؤرخ وكان يتمثل كثيرا ببتامن الشعر للكاتب المسرحى الرومانى تيرنس الذى عاش في القرن الثانى قبل الميلاد ١٩٥ ــ ١٥٩ ق.م رددده في كتابه تجارب Experiences اكثر من مرة وهو اننى انسان ومن ثم فليس هناك شيء انسانى لا اشعر انه يهمنى . وقد تمثل الاتجاه الانسانى في حملته الشديدة على القومية التى ليس هناك ما هو ابغض منها الى نفس توينبى باعتبارها على حد قوله سببا رئيسيا في اسباب الحروب فهو يعيب في كتابه « العالم والغرب » على الاتراك والعرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية تبنيهم فكرة القومية رغم ان لهم تراثا يجعل من المسلمين اخوة على الرغم من اختلاف اجناسهم واوطانهم ولغاتهم وان التراث الاسلامى افضل كمثل اعلى من التراث الغربى ، الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات ويتمنى ان يتوقف انتشار هذا الوباء السياسي الغربى في العالم الاسلامى فيصل الشعور الاسلامى التقليدى بالوحدة . كما تبرز فكرته الانسانية في رفضه لنظرية التفوق العرقى وانه ليس هناك اى دليل على الفروق الجنسية مرتبطة بالقدرات او الصفات فلعل جميع الاجناس متساوية بما فيها من عباقرة وقديسين وبلهاء ومجرمين وان كان هذا لا يمنع من ان هناك تفوقا بلغته امة في التفوق الحضارى عن امة اخرى فحينما وجه اليه ارنست باركر انتقادا بسبب تخصيصه في فهارس اجزاء دراسته للتاريخ من المجلد السابع حتى العاشر مساحة لانجلترا تبلغ سدس المساحة التى خصصها لمصر رد توينبى على ذلك النقد بان المصادفة وحدها هى التى جعلته يفعل ذلك اذ لو كان اساس تخصيص الفهارس اهمية مصر وانجلترا الحقيقية في الحضارة البشرية لوجب ان لا يتعدى نصيب انجلترا واحدا من ستين جزءا اذ ان مصر ظلت محور التاريخ العالمى ما يعادل ٧٠٪ من تاريخ العالم الحضارى البالغ خمسة آلاف سنة كما لم ينقطع دور مصر الحضارى خلال العصرين المسيحى والاسلامى فلولا مصر لانمحت الحضارة الاسلامية وتحطم كيان العالم الاسلامى اذ هى التى

حمته من اخطار الصليبية والتتار وهى الى صانت الثقافة الاسلامية بعكس انجلترا التى لم تكن مركزا لحضارة مستقلة مميزة كما انها لم تؤد دورا كبيرا في الحضارة العالمية ولم تشغل سوى مائتى وخمسين عاما دورا قياديا في العالم الحديث اذ انها اصبحت منذ الحرب العالمية الثانية واحدة ضمن عدد كبير من الدول وتاخر مكانها في المجتمع الدولى الى الصف الثـــانى او الثالث في جميع المجالات (١) .

وقد يكون من المناسب ان نختتم هذه الدراسة بالتعرف عـلى موقف اليهود من توينبى ومن الطبيعى ان يتخذ اليهود موقفا معارضا بل هجوميا ولعل ذلك يرجع الى ما حرص عليه توينبى من وضع اليهود في موضعهم الصحيح بعد دراسته للابعاد السياسية والحضارية لهم على عكس ما كان يتعمده اليهود من تضخيم اهميتهم (٢) فقد خصص وولتر كاوفمان فـى كتابه « من شكسبير الى الوجودية » (٣) فصلين كاملين للهجوم على توينبى من وجهة نظر الصهيونية البحتة فيصفة بالسذاجة والسطحية وضيق الافق والتعصب للمسيحية والتحيز ضد اليهود . ووصف منهجه بالتخبط والتظاهر بالاكثار من المراجع بغرض الادعاء بل انه يصفه بانه لا يجيـــد الانجليزية اذ يكتبها كانه يكتب بغير لغته .

ويمكننا تحديد اراء توينبى فيما يتعلق باليهودية في مسائل ثـلاث اولها : العقيـدة وثانيها الحضـارة اليهودية واخيرا راى توينبى وموقفه من العدوان الصهيونى على فلسطين .

ففى حديثه عن العقيدة اليهودية اوضح توينبى زيف الدعوى التى روجها اليهود من ان اليهودية هى اصل الاديان السـماوية وان النصرانية والاسلام تحريفات لها : كما اكد في كتابه « تجارب » عدم ايمانه بان اليهود هم شعب الله المختار ، على ان اهم ما اوضحه توينبى في الفصل الذى خصصه في كتابه دراسة في التاريخ عن اليهودية والغرب الحديث ان اليهودية كانت بالشكل الذى اصطدمت به بالمسيحية ظاهرة اجتماعية شاذة بحســبانها فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت في كل مظاهرها واكد توينبى انـه

---

(١) فؤاد شبل ، منهاج توينبى فى التاريخ ، ص ١١٤ .

(٢) حسين مؤنس ، الفكر التاريخى ، مجلة عالم الفكر المجلد الخامس العدد الأول ١٩٧٤

Kaufman, From Shakespeare to Existentialism p. 389 New York, 1965.

انظر أدب التاريخ عند العرب . للدكتور عفت الشرقاوى ص ١١٠ ، ١١١

على الرغم من ان اليهود نجحوا في التحرر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا نتيجة الثورات الدينية والايديولوجية الحديثة في العالم الغربى الا ان الحاجز السيكولوجى ما برح قائما بين المسيحيين واليهود كما تابع اليهود عزل انفسهم عن المجتمع الغربى وما انفك اليهودى وهو يعيش في مجتمع موحد من الوجهة الرسمية يجد نفسه معزولا ومنبوذا عنه (١) .

ولا شك ان آراء توينبى عن اليهودية اثارت حملة كبيرة عليه وربما غدت كونها حملة سياسية اكثر من كونها حملة علمية بل يكفى ان نشير هنا على حد ما ذكره سترامبورج ان الكتب الكثيرة التى وضعها اليهود عن آراء توينبى كافية لكى تملأ رفا في مكتبة كبيرة .

ومن ابرز الكتب والمقالات اليهودية التى صدرت للرد على توينبى (٢) في رايه الخاص بان اليهود شعب متحجر وهو الراى الذى يطلقون عليه اسم افتراض توينبى او هرطقة توينبى ، الدراسة التى وضعها موريس صمويل بعنوان الاستاذ والتحجر (٣) والحقيقة ان توينبى لم يستخدم كلمة التحجر في الاشارة الى الشعب اليهودى وحده بل استخدمها لفئة كاملة من الشعوب وفي رده على الحملة الهجومية التى شنها اليهود ضده اكد ان استخدامه للتحجر كان نتيجة لما توصل اليه من ان هنالك عدة اجيال من حضارات بعضها اندثر منذ عدة آلاف من السنين والبعض الآخر لا يزال حيا حتى الوقت الحاضر ولكنه وجد من فئة الحضارات التى اندثرت منذ مدة طويلة بعض المجتمعات التى بقيت كاليهودية والباريسية ولكن ظل اصحابها ممثلين لحضارة غاب اصحابها عن مسرح التاريخ وذلك

---

(١) سمرفيل، مختصر دراسة التاريخ ، ج ٣ ، اليهود والغرب الحديث ، ص ٢٢٣ – ٣٢٤ .

(٢) ان استعراضنا لما كتبه اليهود نجده أكثر مايكون هجوما على توينبى منه إلى مناقشة منهجه العلمى ولعل من أهم المقالات والدراسات التى وضعها اليهود بالإضافة إلى ما ذكرناه الدفاع ضد التحجر فى دراسة وضعها بيركوفيتس Berkovitz المعنونة Judaism Fossil or Ferment وكذلك دراسة بوركناو Borkenau بعنوان Toynbee's Judgement on the Jews ومقالة ابا ايبان عن هرطقة توينبى Toynbee's Heresy ودراسة روبين The Professor and the fossil

وكذلك كتاب موريس صمويل بالعنوان السابق الذى صدر فى نيويورك سنة ١٩٥٦ ؛ كما اتهم توينبى بالبربرية فى بعض الدراسات التى صدرت فى بعض المجلات اليهودية ونذكر منها مقالة Steechin livioc بعنوان Toynbee Néo Barbariam

(٣) M. Samuel, Professor and the Fossil, New York 1956

نتيجة لتقوقعهم وانغلاقهم على انفسهم طوال عدة قرون . كما سبق ان اشرنا ان دفاع اليهود عن انفسهم لم يكن دفاعا علميا بقدر ما كان دفاعا ادعائيا من ذلك ما ردده هيرزوج في مناظرته المشهورة مع توينبى من ان اليهود هم الشعب الوحيد الذى لا يزال يعيش في الشرق الاوسط من بين جميع شعوبه القديمة وانهم يمارسون نفس معتقداتهم القديمة كما استطاعوا رغم انقضاء آلاف السنين تجميع انفسهم من بلاد العالم لانشاء دولة لهم وان ذلك يؤكد لهم صفة الحيوية وليس التحجر واكد هيرزوج السفير الاسرائيلى في كندا في المناظرة التى اشرنا اليها والتى عقدت في جامعة ماكجيل في يناير ١٩٦١ ان اسرائيل هى الدولة الديمقراطية الواضحة للعيان فى الشرق الاوسط وتباهى بان هناك شعوبا كثيرة في افريقيا وآسيا تتجه لاسرائيل لارشادها والتعاون معها وذهب الى القول بان اسرائيل تحمل رسالة الى العالم وليس كما ذكر توينبى في ان رسالة اليهود قد انقطعت منذ ما يقرب من ٢٣٠٠ سنة (١) .

وتجدر الاشارة الى كراهية توينبى للحركة الصهيونية التى اتجهت اتجاها قوميا متطرفا بغيضا الى قلبه فقد ذكر ان الصهيونية هى خيانة لليهودية الخالصة مما دفع المؤرخ الصهيونى ناميير في كتابه Avenue of History الى التاكيد بان كراهية توينبى للصهيونية لا تنطوى على كراهية اليهودية في حين يؤكد لويس ممفورد ان تناول توينبى لليهودية كان خطيئته الكبرى وتجدر الاشارة ايضا الى ان مواقف توينبى من الاعتداء الصهيونى على فلسطين قد دفعته الى خصومات شديدة مع كثير من مفكرى اليهود وقد ذكر توينبى في كتابه « معارف » ان خصامه مع المؤرخ الصهيونى لويس ناميير يعود الى عام ١٩٣٩ حينما كان يكتب في مجلة Survey of International Affairs عن فلسطين تحت الانتداب البريطانى وابدى شكوكه في امكان نجاح الانجليز في التوفيق بين التزامهم كسلطة منتدبة بين العرب واليهود ، كما تحدث في كتابه « تجارب » عن حق الفلسطينيين في وطنهم منددا بطرد اسرائيل السكان العرب واعتبار ما اقدمت عليه جريمة تاريخية واخلاقية (٢) كذلك تحدث عن القضية الفلسطينية في كتابه « بين النيجر والنيل » الذى صدر

---

(١) انظر نص المناظرة بين توينبى وهيرزوج فى ٣١ يناير ١٩٦١ .

(٢) ص ٦٩ — ٧١

عام ١٩٦٥ (١) .

وفي العدد الاول من عام ١٩٧٣ نشرت مجلة دراسات فلسطينية حوارا دار بين توينبى وبين لويس ايكس الصحفى البريطانى اكد فيه توينبى أن بلفور كان رجلا شريرا اذ انه كان يفهم مرامى تصريحه وانه صاغ كل كلمة فيه بعناية لتكون غامضة مثل « وطن قومى لليهود » او الحقوق المدنية والدينية وليست الحقوق السياسية للجماعات غير اليهودية في فلسطين .

اما بالنسبة للعدوان الاسرائيلى في فلسطين وموقفه منه فقد اتضح في المجلد الثامن من دراسته للتاريخ الذى ادان فيه الغرب والصهيونية على جريمتهما في فلسطين (٢) وكان ابلغ ما ذكره بصدد ذلك ان من بين جميع سخريات التاريخ الكئيبة ان الصهاينة اقاموا على انفسهم الحجة بان الدرس الذى تعلموه من الفظائع التى قام بها النازى ضدهم لم يدفعهم الى اجتناب نفس الجريمة التى كانوا هم ضحاياها بل راحوا يضطهدون شعبا اضعف منهم وهم الفلسطينيون العرب (٣) ، وعلى اثر نشر المقالة المذكورة في عام ١٩٥٤ ، حمل اليهود على توينبى حملات قاسية في مجلة Jewish Frontier (٤) وقد تصدى توينبى لمقالة كتبتها مس سيركن بعنوان « الاستاذ توينبى واليهود » في نفس المجلة وحمل بريطانيا مسئولية النكبة الفلسطينية وانه يشعر بتلك المسئولية باعتباره بريطانيا (٥) وقد دمغ توينبى اليهود بالتعصب وكانوا على التعاقب مجرمين وضحايا له منذ القرن الثانى قبل الميلاد وانتقد قيام اسرائيل باعتبارها دولة عنصرية حديثة واكد في مناظرته مع هيرزوج ان جرائم النازية ضد اليهود كانت اقل انحطاطا من جرائم اليهود ضد العرب ، وبطبيعة الحال لم يقارن ذلك من الناحية الاحصائية ولكن من الناحية الاخلاقية فاذا قتلت شخصا واحدا فان ذلك يجعلنى مجرما وليس من الضرورى ان يرتفع عدد ضحاياى الى رقم الف مثلا حتى اصبح مجرما حقيقيا ودحض الراى القائل بالحق

---

(١) Betneen Neger & Nile, p. 68 - 90

(٢) Toynbee, A study of History Vol. VIII p. 298—313

وكذلك سمرفيل – مختصر دراسة التاريخ ج ٣ – انظر الغرب الحديث واليهود ص ٣١٥ وما بعدها .

(٣) سمرفيل ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ .

(٤) انظر رد توينبى فى فبراير ١٩٥٥ فى نفس المجلة .

(٥) Arnold Toynbee, A study of History Vol. VIII p. 304

لتاريخي لليهود في فلسطين مستندا في ذلك الى حقائق واسانيد تاريخية (١) وعلى الرغم مما قامت به الهيئات الصهيونية المسيطرة على وسائل النشر من محاربة آراء توينبى الا ان المحاولة لم تمنع من ان تخلق لآرائه صدى بعيد الاثر (٢) .

وفي نهاية هذه الدراسة اود ان اشير هنا الى ما اورته فى هذه الدراسة لا يمثل الا الملامح العامة لما ذهب اليه توينبى من آراء وما اثارته هذه الآراء من جدل ونقاش بدا منذ ذلك القرن او قبل ذلك حينما بدا يثرى الفكر الانسانى نتاج ذهنه ، وفي ظنى ان ذلك الجدل والنقاش سيستمر لاجيال عديدة قادمة شان الاعمال الناجحة التى عادة ما تحدث هزات كبيرة في الفكر الانسانى قد يستمر امدا طويلا .

* * *

معهد البحوث والدراسات العربية
مقر الدار للمنظمات العربية

---

(١) انظر نص المناظرة بين توينبى وياماكوف هيرزوج سفير اسرائيل فى كندا يناير ١٩٦١

(٢) ارنولد توينبى ، فلسطين جريمة دفاع ، تعريب عمر الديراوى ، ص ٦ دار العلم